

مزايا الفلسفة

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

للأستاذ زكي نجيب محمود

أقد لبثت الفلسفة دهرًا طويلًا تسبح في سماء الفكر المجرد، فلا تصنى بأذائها إلى الحياة العملية التي تخرج بأصداؤها أرجاء الأرض جميعًا. ولا نحفل بالواقع الذي تراه الأبصار إلا قليلًا، فقد قصرت بمجهودها - في الأعم الأغلب - على جوهر الأشياء في ذاتها، وأخذت تسائل: ما المادة وما الروح وما بينهما؟ ولكنها جاءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والافلاس... حتى جاء الفكر الأمريكي الحديث الذي يقدس العمل ويعتق البحث النظري الجذب المقيم، وأراد أن يفتحوا بالفكر نحوًا جديدًا، فلا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره، بل نتيجته وعقبه. وأقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) الذي اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشنات قديمة. وأن له فضل الصياغة والتعبير. أما رسالته التي قصد إلى أدائها بمذهبه فهي في أوجز عبارة: أن يتخذ الإنسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً، ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيًا.

إنه لمن الغفلة والشطاط أن تؤذي هذه القوة العقلية فنبدها في البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للإنسان ولا رجاء؛ إن العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكالها، فلينصرف إلى أداء واجبه، وليضرب في معمار الحياة العملية الواقعة، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول، الذي لا يكاد يربطه بحياة الإنسان سبب من الأسباب، وليكن مقياسه الذي يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المبنية على إنجاز أغراض الإنسان في حياته العملية، فإن تضاربت الآراء وتمازجت، كان أحقها وأصدقها هو أقمعها وأجداها، ذلك التي تنهض التجربة العملية دليلًا على فائدته. وكل شيء يؤثر في الحياة تأثيرًا متجانسًا يجب أن يكون في اعتبارنا هو

وكان هذا آخر العهد بتدخل الصقالية في سير الحوادث الأندلسية بصورة بارزة. ومن ذلك الحين يحتفون من ميدان الشؤون الأندلسية كقوة فعالة لها أثرها الحاسم في توجيه الحوادث، ومن ذلك الحين يبرز نجم البربر؛ وتتحول الحركة الداخلية إلى فضال مزدوج، فضال ملوك الطوائف فيما بين أنفسهم، ثم فضالهم ضد العدو المشترك أعنى أسبانيا النصرانية؛ ثم يجرى دور البربر في السيادة المطلقة بسرعة، فتهاجم دول الطوائف الصغيرة تحت ضرباتهم القوية، وتسقط الأندلس في يد الرابطين ثم يفتتحها الموحدون، فتستمر سيادة البربر عصرًا آخر؛ ثم تنهض مملكة غرناطة في تلك التمار والخطوب العصية فتسطع في الأندلس حتى يحل الصراع الأخير.

محمد عبد الله عنانه

تم البحث

(النقل ممنوع)

مَحَلُّ الْفِتْلِ

مقالات الأستاذ الراجي

مائة مقالة في جزأين

ألم القراء على الأستاذ «مصطفى صادق الراجي» في جمع مقالاته، فهي للطبع مائة مقالة تقع في جزأين كبيرين، وقد فتح باب الاشتراك إلى آخر شهر ديسمبر من هذه السنة، وجعل قيمة الاشتراك في الجزئين عشرين قرشًا صافيًا غير أجرة البريد وهي ثلاثة قروش للداخل القطر المصري، وخمسة عشر قرشًا للأقطار الأخرى كي يرسل الكتاب مسجلًا وسيكون الثمن بعد الطبع أربعين قرشًا صافيًا، ولا يطبع فوق عدد المشتركين إلا قليل، وترسل قيمة الاشتراك باسم الأستاذ الراجي في طنطا، والقيمون في القاهرة يشتركون من إدارة «مجلة الرسالة»

الحقيقة، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلفه الفكر الجرد من معايير، إذ لا يمتثل مذهب القرائع إلا على النتائج وحدها؛ فإن كان الرأي مشمراً نافماً قبلناه حقيقة، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلا

والواقع أن معظم الناس يتبعون في حياتهم العملية أصول هذا المذهب، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يمين على تحقيق أغراضهم التي يقصدون إليها، أو ما يعمل على رقي الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة. خذ العقيدة في الله مثلاً، فلا كثرية العظمى تأخذها إلا لأن الدليل قاطع بوجوده، (فذلك أبسد عن متناول الدماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث في حياة الناس روحاً قوية، وتفسح أمامهم في الأمل الجميل الذي تردهر به الحياة وتبتسم، والقي لولاه لضقتنا ذرعاً بفداحة عبثنا.. فليس منا من لا يقيس الآراء بطروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأنها في أداء مهمته؛ فسلوكنا العملي هو في الواقع القى يوجه أفكارنا، وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا. ولقد قال موسوليني يوماً إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية، وإنه بتأثيره لا يحتكم في سياسته إلى نظريات العقل الجرد، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى انتاجا

وإن نبشّه لينذهب في هذا الاتجاه إلى أقصاه، فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجمة لحفظ الحياة كان خيراً من الحقيقة؛ فبطلان الرأي لا يمنع قبوله مادام طاملاً من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع؛ فرب أ كذوبة أو أسطورة تدفع الحياة إلى الأمام بما تمجذ عنه الحقيقة المجردة المارية. أنظر كيف تفعل الوطنية في رأس الجندي فيطوح بنفسه بين برائن الموت، ولو حكم عقله الجرد لما فعل؛ بل انظر كم يذل الآباء والأنهات من مجهود في سبيل أبنائهم، ولو استرشدوا العقل وحده لأثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأى بذل أو عطاء، ولستنا لحسن الطالع فرائميون بالفطرة، فنعتقد من الآراء أحفظها للحياة، ولولا ذلك لظلت الانسانية في حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير ولا يقتصر الأمر في ذلك على عامة الناس، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التي تمين على المضى في بحثهم، دون أن ينهض الدليل العقلي على صحة تلك الآراء التي اتخذوها أساساً لأبحاثهم، فلا يدرى العلم ما الأثير

وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء، واسكنه يفرضها لأنها تمينه على أداء مهمته؛ وهذا بعينه ما يدعو إليه مذهب الذرائع، فيكفى لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا في حياتنا توجيهها صحيحاً، فلا يعنيننا في كثير أو قليل أن نعلم ما هي الكهرباء في ذاتها مادمتا نستطيع أن نستخدمها، فحسبنا من معناها آثارها، وليكن معنى الكهرباء هو ما نعمله وما تؤديه، وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المسائل الفكرية التي أرهقت الفلسفة بغير طائل؛ فلندع جانباً كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما إلى ذلك، وحسبنا منها أن نبصّر عن الآثار التي تنشأ عنها في حياتنا اليومية العملية، فإن لم يكن لها آثار فيها نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظاً جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

وهكذا يريد مذهب الذرائع أن تكون كل فكرة وسيلة لسلوك عملي معين، أعنى أن تكون الفكرة تصميماً لعمل يقوم به الإنسان، أو لا تكون على الإطلاق؛ فالفكرة التي تحيا في الذهن وحده ليست جذيرة بهذا الاسم، ولا خير فيها إلا أن كانت مرشداً للإنسان في حياته وسلوكه، فيكون مثلها مثل اللون الأحمر أو الأخضر على السكة الحديدية يراها سائق القطار فيوجهان تصرفه توجيهاً معيناً، أو كعلامات للموسيقية كل قيمتها في توجيه حركات الموسيقى، فإن لم تُفد ذلك كانت عبثاً صبياناً لا معنى شيئاً؛ فيجب على هذا الأساس أن تكون كل فكرة في أذهاننا مرشداً عملياً يرسم لنا سلوكنا ويضع لنا القواعد التي يبنى أن نسير على مقتضاها في حياتنا اليومية. أو بمعنى آخر تكون أساساً لمادة معينة. ففكرة الجاذبية مثلاً معناها محصور في تكوين عادات معينة أستمين بها في سلوكي، فأعرف كيف أنظم علاقتي بالأشياء تنظيماً ملائماً، فأحمل كروب الماء مثلاً وفه إلى أعلى حتى لا ينسكب الماء بفعل الجاذبية؛ وأمشي معتدلاً القامة خشية السقوط بفعل الجاذبية، وأشيد مسكني مستقيماً الجدر لئلا ينهار بفعل الجاذبية، وهلم جرا. أما إن كانت حياتي لا تتأثر بهذه الفكرة، وكنت لا أصادف لها آثاراً فيها أصادف من تجارب، كانت في اعتباري وهما خطأ، بغض النظر عن حقيقة وجودها في العالم الخارجي أو عدم وجودها؛ فالرأي الصحيح هو ما ييسر لي سبيل الحياة ويعمل على توفيقها

الدوائر لصدق فكرة ما :

١ - فأولا يجب أن يكون للفكرة قيمة فورية Cash-value ، ومنها أن الانسان يجب أن يشاهد صحة رأيه أو خطأه في تجربته العملية ، فان جاءت هذه التجربة العملية موافقة للفكرة كانت الفكرة صحيحة وإلا فهي خاطئة

٢ - وثانياً أن تكون الفكرة منسجمة مع سائر أفكارى وآرائى . فلا يكتفى أن تكون كل فكرة صحيحة على حدة بالنسبة لقيمتها الفورية ، ولكنها يجب كذلك ألا تناقض الأفكار الأخرى . فلا يجوز مثلاً أن أفرض نوعاً من القدرات في علم الطبيعة ، ثم أفرض نوعاً آخر منها في علم الكيمياء ، حتى ولو كان كل منهما صحيحاً في مبداهه الخاص - فإذا وجدنا أساساً فكرتين عن شيء ما ، كل منهما صحيح بالنسبة لقيمتها الفورية ، وجب أن نختار إحداها على أساس البساطة ، فأبسط الفكرتين أصحهما ؛ فشلاً لما أتى كوبرنيك برأيه الجديد عن الكون يمارض به رأى بطليموس القديم ، كانت كلتا الفكرتين صادقة إذا قيستا إلى ما ينجم عنهما من النتائج العملية في حياة الناس ، ولكن ما دامت فكرة كوبرنيك أقل تعقيداً من الأولى ، كان لزاماً أن يقع عليها اختيارنا

٣ - ولا بد للفكرة بعد هذا وهذا أن تطعن لها نفس الانسان وترضى مادام ذلك لا يمارض مع القيمة العملية . فالعقيدة الدينية مثلاً ، على الرغم من أن ليس لها قيمة فورية في حياتنا إلا بمقدار ضئيل ، إلا أنها واجبة ، لأنها تلج على حياتى صبة من التفاؤل ، وهى فى الوقت نفسه تنسجم مع الأفكار الأخرى ولا يمارض معها . ومعنى ذلك أنه إذا تساوت ظروف فكرتين ، ثم كانت إحداها تبث التفاؤل والأخرى تبث التشاؤم ، كانت الأولى بالنسبة لنا أصدق وأصح . قاؤم وللحد كلاهما لا تؤثر عقيدته فى شؤون حياته ؛ ولكن الأول متفائل يرجو الآخرة ، والثانى متشاؤم لا يرجو شيئاً ؛ إذن فلايمان أصدق من الاتحاد وأحق ، لأنه أجدى على الانسان وأنفع

تلك هى الحقيقة فى عرف هذا المذهب ؛ ولقد يمترض بحق أنها قد تؤدي الى التنافر بين الناس ، وإلى عدم انسجامهم فى سلك المجتمع ، لأن كل فرد سيتبنى لنفسه الرأى الذى ينغمه بنفض النظر عما يتخذه سواه من آراء ؛ وإذن فلسفة الانسان مستعمدة على

ونجاحها ، والرأى الخاطئ هو ما يفعل عكس ذلك ، أو ما لا أرى له أثراً فى الحياة

وظاهر أن نظرية التطور تؤيد هذا المذهب وتدعمه ، لأن العقل عندها ليس إلا عضواً كسائر الأعضاء يتدرج به الانسان فى تنازع البقاء ، وأنه لو لم يكن العقل أداة من أدوات البقاء لما وجد أصلاً ؛ وإذن فالفكرة التى تنشأ فيه لا تكون صادقة بمقدار مماثلتها للحقيقة الواقعة فى الخارج ، كلا ، بل مقياس صدقها هو فى مقدرتها على إجابة الظروف المحيطة بنا على النحو الذى يمكن لنا فى البقاء . ولتوضيح ذلك نقول إنه من المعلوم أن الأشياء الخارجية فى ذاتها ليس لها ألوان ، إنما الألوان من صنع أعيننا ، ولكنى ما دمت أستطيع بفكرة اللون التى فى ذهنى (وإن لم تكن موجودة فى الخارج) أن أميز الأشياء فأعرف التفاحة الناضجة مثلاً بأحمرارها ؛ والفجة باخضرارها ، ففكرة اللون صحيحة صادقة . كذلك قل فى الصوت ، فليس للأصوات وجود فى الخارج ، إنما هى أمواج تقصر حيناً وتطول حيناً ، حتى إذا ما قرعت الأذن ، ترجمتها هذه بما نعهد من أصوات ، ولكن ماذا يعينى من عدم مماثلة فكرة الصوت فى ذهنى للأمواج الخارجية فى الهواء ، ما دمت أعرف أن هذا الصوت المعين يدل على سيارة قادمة فأنجو بحياتى من الخطر ؟ إن فكرة الصوت حقيقية ما دامت تعمل على نجاح الحياة ويقاؤها ... إن الحياة كما يعرفها سينسر هى ملائمة حالات الانسان الداخلية بالظروف الخارجية ، وإذن فالعقل الصالح للحياة هو ذلك الذى يدرك اختلاف الظروف الخارجية لتمدل من سلوكنا بما يلائم الموقف الجديد ، وليس يعنيننا بعد ذلك فى كثير ولا قليل أن تكون الصورة الذهنية التى رسمها لنا العقل من الأشياء الخارجية ، مطابقة لأصلها أو مشوهة بحرفة ، فالحقيقة العليا فى الوجود هى الاحتفاظ بالبقاء أولاً ، ثم الارتقاء بالحياة نحو الكمال . فكل ما يودى الى ذلك هو حق صريح . وفى ذلك يقول « ديوى » العالم الأمريكى المعروف : إن الفكر أداة لترقية الحياة وليس وسيلة الى معرفة الأشياء فى ذاتها . ويقول « شرل » : إن الحقيقة هى ما تخدم الانسان وحده . وكلا الرجلين من دعاة هذا المذهب

ونحن نجمل فيها بلى ثلاثة الشروط التى يضمها مذهب